المحاضرة الحادي عشر

(لويس التقي ٨١٤ – ٨٤٠)

توفي شارلمان في ٢٨ كانون الثاني عام ٨١٤ وآلت مملكته الواسعة الى لويس التقي. وهو الابن الوحيد الذي كان قد بقي له على قيد الحياة. وسبق لشارلمان ان عقد مجلسا من كبار نبلاء مملكته في اكس لاشابل عام ٨١٣ توج فيه بيده ابنه لويس ملكا وامبراطورا دون تدخل من البابا ودون حاجة الى مصادقته.

كانت المملكة عند وفاة شارلمان تتمتع بالسلام، فلم يكن هناك تهديد خارجي ولا هجوم محتمل ، ولا تمرد كبير . لقد كان خليفة شارلمان لويس التقي ذا ثقافة لاتينية ودينية ، الذي دفع الى اعطائه لقب التقي. والواقع انه لم يكن تقيا بقدر ما كان ضعيفا ومتخاذلا ومترددا. ولم يستطع لويس ابدا مل الفراغ الذي تركه ابوه القدير المتمكن. وكان لشخصيته الضعيفة اثرها في تفكك الامبراطورية الكارولنجية. فقد شجع ذلك الضعف كثيرا من العناصر على التمرد. فقد ثار عليه ابناؤه الطموحون واقرباؤه الذين طمع كل واحد منهم في اقتطاع ما يمكن له اقتطاعه من تلك الامبراطورية الواسعة. كما دفع النبلاء في طول البلاد وعرضها الى التجاوز. على اختصاصات وصلاحيات السلطة المركزية. وكان هذا عاملا مهما في انحلال الامبراطورية وفي تبلور نظام الاقطاع. وفي عهد لويس التقي ايضا ازدادت سلطة البابوية واخذت في ادعاء حقوق اكثر واكثر وفي ممارسة سلطات دينية ودنيوية اوسع واوسع . ومنذ البداية واجهت لويس التقي مشكلة اساسية هي مسألة وراثة الامبراطورية فقد كان له ثلاثة ابناء هم: لوثر ولويس الألماني وبيبن ، ويفترض تقسيم الامبراطورية بين هؤلاء الابناء الثلاثة طبقا لتقاليد الفرنجة. ولكن الشيء الجديد في الأمر، هو ان التقسيم يتنافى تماما مع مفهوم الامبراطورية ، فالسلطة الامبراطورية بطبيعتها غير قابلة للتجزئة ، وهي واحدة كالسلطة البابوية تماما .

واخيرا قرر لويس الابقاء على المظهر الامبراطوري لمملكته دون التفريط نهائيا بالعرف والتقاليد الجرمانية الخاصة بالتقسيم المتساوي بين الابناء . ففي عام ٨١٧ عين ابنه الاكبر لوثر وصيا على ان يرث لقب الامبراطور من بعده. وفي الوقت نفسه اعطى بيبن اوكتين واعطى لويس الالماني بافاريا ، وقد يكون هناك قليل من الشك في ان لويس قام بهذا الاجراء بعد التشاور مع البابا. ولم ترض هذه التسوية الاخوين لويس الالماني وبيبن فقد اعتبراها مجحفة بحقوقهما. واخذا يتربصان بأبيهما واخيهما لوثر للانتقام منهما. وسرعان ما جات الفرصة وتهيأت لهما الظروف لذلك. فقد تزوج لويس التقي عام ٨١٩ من يوديث الفتاة الجميلة الفطنة الطموحة وسرعان ما وقع تحت

تأثيرها. وفي عام ٨٢٣ رزق منها بولد سمي (شارل الاصلع) واخذت يوديت تحيك الدسائس وتضغط على زوجها لحمله على اعادة النظر في قسمته السابقة كما تعاونت مع ولديه الساخطين لويس الالماني وبيبن.

وخضع لويس التقي لضغط زوجته وانتزع من ابنه الاكبر لوثر لقب الوصي وانكر عليه وراثته للقب الامبراطور. وعبر لوثر جبال الالب وذهب الى روما لعرض ظلامته وشكواه امام الاب المقدس ابيه واخوته. واعاد لويس التقي التقسيم وخص ابنه شارل الاصلع هذه المرة بحصة الأسد من مملكته ، الامر الذي اثار بقية اولاده جميعا – لوثر ولويس الالماني وبيبن – واتفقوا على محاربة ابيهم وساروا اليه عام ٨٣٣ وجاء بصحبتهم البابا غريغوري الرابع وانتصر الاخوان الثلاثة انتصاراً حاسما على ابيهم . والواقع انه كان نصرا للبابا الذي كان يشد ازرهم. فباسم السلام الالهي ادعى البابا الحق في التدخل لاعادة حقوق لوثر والحفاظ على مصالح اخويه لويس الالماني وبيبن. كما وبخ الامبراطور لما اسند اليه من جرائم ومخالفات ونكث العهد . لقد كانت حقا هزيمة للامبراطورية ونصرا للبابا والبابوية ، ولم ترضى التسوية جميع الاطراف المعينة. واستمر الصراع بين لويس التقي وابنائه الاربعة . ولم يضع موت بيبن عام ٨٣٨ ولا موت الامبراطور نفسه عام ٨٤٠ حدا للصراع. واخيرا وفي عام ٨٤٣ ، وبعد ان استنفذت قوة جميع الاطراف ، وضعت التسوية النهائية لاقتسام الامبراطورية الكارولنجية في معاهدة فردان المهمة.

معاهدة فردان عام ٨٤٣ :

قسمت الامبراطورية الكارولنجية بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ بين ابناء لويس التقي الثلاثة ، لوثر ، ولوس الالماني ، وشارل الاصلع. وتعتبر معاهدة فردان من اهم المعاهدات في التاريخ الاوربي ، فقد رسمت معالم اكثر من قطر من اقطار اوربا. واخذ لوثر بموجب المعاهدة شريطا من الأرض يمتد من هولندة الحالية الى ايطاليا ويشمل حوض الراين وايطاليا وسميت المنطقة كلها باسمه لوثرانيـــا (Lotharingia) واحتفظ بلقب الامبراطور . واخذ شارل الاصلع بلاد الفرنجة الغربية (West Frankland) وهي مقاربة لفرنسا وبلجيكا الحاليتين. اما لويس الالماني فقد اخذ بلاد الفرنجة الشرقية (East Frankland) وهي مقاربة لالمانيا الحالية. لقد انهت معاهدة فردان الامبراطورية الكارولنجية وصارت هناك وحدات سياسية متميزة . ان خارطة اوربا من غير شك قد وضعت خطوطها العريضة في معاهدة فردان.

الامبراطورية بعد فردان :

انهت معاهدة فردان من الناحية العملية الامبراطورية ولم يبق الا وجودها النظري. لقد كان للوثر نوع من السيادة غير الواضحة المعالم على اخويه شارك ولويس ولكن من الناحية العملية ، لم يعد حامل لقب الامبراطور يحكم سوى ثلث الامبراطورية التي كان يحكمها شارلمان.

وتردى وضع الامبراطورية كثيرا بعد وفاة لوثر عام ٨٥٥ ، فقد كان له ثلاثة ابناء فاقتسموا مملكته بينهم ، واخذ الاكبر منهم. لويس الثاني ايطاليا مع الامبراطوري. وإذا كان ابوه يملك من القوة والنفوذ بقدر ما كان لكل من اخويه لويس الالماني وشارل الاصلع ، فان لويس الثاني حامل اللقب الامبراطوري الجديد لم يكن الا ملكا من الدرجة الثانية بالنسبة الى عميه . وهكذا ظهر البون الشاسع بين واقع الأمبراطورية من ناحية ومفهومها النظري من الناحية الثانية. وقد يلخص بانه كان هناك امبراطور ولم تكن له امبراطورية.

وانحطاط مركز الامبراطور وتلاشي قوته كان يقابله من الجهة الأخرى ازدياد قوة البابا وامتداد نفوذه. وكان هناك توازن في القوى بين البابوية والامبراطورية ، أو بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية بشكل عام ، وان ما يخسره احدهما يربحه الآخر لقد فرض غريغوري الرابع نفسه على لويس التقي وابنائه. وفرض نقولا الاول ٨٥٨ – ٨٦٧ نفوذه على الامبراطور لويس الثاني. وهكذا انتهى ذلك التحالف بين البابوية والملكيتان الميروفنجية والكارلنجية وحلت محله سيطرة بابوية.

فالبابا بما يدعيه من اصول سماوية لسلطانه اعتبر نفسه الآن هو الحكم الفصل وهو الموجه والمرشد للحكام الدنيويين سواء كانوا ملوكا ام اباطرة . وان اي اعتراض على سلطته ، انما هي اعتراض على السلطة الالهية ، يستحق صاحبها العقاب . وكان الحرم الكنسي (او الحرمان) والتهديد بالحرم السلاح الماضي للبابوات ضد كل ملحد وجاحد ومتمرد من ملوك وامراء واباطرة.

وذهب البابا نيقولا الأول ابعد تلك الحدود عندما اراد فرض سيطرته على الكنيسة الشرقية واعلن الحرم ضد بطريق القسطنطينية ، الأمر الذي ادى الى زيادة التوتر بين الكنيستين الشرقية والغربية.

واتاحت وفاة لويس الثاني عام ٨٧٥ فرصة اخرى للبابوية لاظهار سيادتها على الامبراطورية ولتاكيد نظريتها القائلة بان الامبراطورية تستند في وجودها الى البابوية وليس الى الاسرة الكارولنجية. اذ لم يكن للويس الثاني ولد يرث العرش واللقب الامبراطوري من بعده . وكان اقرب الورثة اليه من الذكور كارلمان ابن عمه لويس الالماني ، وقد اختاره فعلا ليكون وريثه. ولكن البابا جون الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢) ارتأى غير ذلك ، فقد استدعى شارل

الاصلع العم الى روما و توجه امبراطورا. والواقع ان شارل الاصلع هو آخر من حمل لقب الامبراطور من الكارولنجيين وكان يتمتع بشيء من السلطة والهيبة.

على اية حال لم تستفد البابوية ، على المدى البعيد ، من انهيار سلطة الكارولنجين فان ازدياد قوة النبلاء الاقطاعيين في اواخر القرن التاسع ، وهجمات الشماليين والمسلمين والهنغاريين والبلغار وضعف السلطة المركزية

والحروب الداخلية والمنافسات والمؤامرات التي سادت علاقات النبلاء والامراء كل هذه الامور تركت البابا والاباطرة الذين يختارهم لاحول لهم ولا قوة . بل ان تلك السلطة التي كان يدعيها البابوات وهي حقهم في تتويج الاباطرة صارت وبالا عليهم. فكم من ملك وامير ونبيل طموح شق طريقه الى روما في وسط تلك الفوضى الضاربة اطنابها في اوربا ، لارغام البابا على منحه الملقب الامبراطوري الرفيع، وتتويجه بالتاج الامبراطوري الكبير ولم يكن بوسع خليفة القديس بطرس الا ان يذعن وينفذ ما يطلب اليه.

<u>عوامل انهيار الامبراطورية الكارولنجية</u> :

يقول هنري برين المختص بتاريخ العصور الوسطى، انه على الرغم من سمعة شارلمان ومكانته ، على المرء إن لا يبالغ في اهمية انجازاته السياسية وتماسكها وصلابتها . فالامبراطورية التي خلفها لم تكن الا بناء هشاً ، سرعان ما تفكك ، ولم يمض على وفاته الا وقت قصير. ويرى برين ان عوامل انحلال الامبراطوري الكارولنجية هي في داخلية أساسها ، نابعة من طبيعة تركيبها .

ويفسر كرستوفر دوسن ، و هو مختص آخر في العصور الوسطى ، تلك العوامل الداخلية ، فيقول : ان بذور الفساد والانحلال تولدت في الامبراطورية الكارولنجية في أصولها الأولى. فعلى الرغم من مظاهر القوة ، فانها كانت بناء غير متجانس الاجزاء وهي وان ادعت لنفسها وراثة الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكنها في الحقيقة لم تكن الا مملكة جرمانية وليس شيئا آخر.

فالامبراطورية الكارولنجية كانت في الواقع قليلة الشبه بالامبراطورية الرومانية القديمة ، على الرغم من اسمها ، بل انها كانت اقرب الى الامبراطوريات البربرية التي أقامها الهون والافار والمغول. وهي الامبراطوريات التي كانت ثمارا عابرة من اعمال الحرب والغزو ، والاستيلاء ، والتي تعاقبت واحدة بعد أخرى على تخوم العالم المتحضر ، ثم ذهبت في سرعة مذهلة خلال تلك القرون. والواقع ان الامبراطورية الكارولنجية التي اراد لها اصحابها ان تكون وريثة للامبراطورية الرومانية القديمة كان يعوزها كل صفات الامبراطورية القديمة فليس لها

القانون الروماني ولا الكتائب الرومانية ولا السانتو الروماني ولا المدن الرومانية بل لم تكن سوى كتلة من مساحات اقليمية شاسعة. اما موظفوا هذه الامبراطورية الجديدة فلم يكونوا موظفين مدنيين مؤهلين للحكم والادارة بل كانوا كونتات وقادة عسكريون قبليون وشبه قبليين.

لقد كان اولئك الكونتات ونظائرهم الاساقفة يكونون الطبقة الحاكمة الارستقراطية الفعلية في المجتمع الكارولينجي. وكان عدد من هؤلاء يجتمعون بالملك مرتين في العام (في عيد الميلاد وفي عيد الفصح)

يساعدوه في ادارة شؤون مملكته. ولكن ذلك التجمع بقي ذا طابع بدائي قبلي ساذج من دون ان يتطور ويتحول الى مؤسسات سياسية وادارية واضحة المعالم دقيقة الاهداف. فلم تتوضح حتى النهاية ، اصلاحات واهداف المجتمعين. وهناك امر واحد بقي واضحا طيلة عهدي الميروفنجيين والكارولنجيين هو استمرار ازدياد نفوذ هذه الفئة الارستقراطية على حساب السلطة المركزية.

والواقع انه عندما اعتلى شارلمان العرش ، كانت هذه الطبقة الارستقراطية قد بلغت من القوة درجة اصبح من الصعب معها مقارعتها ، ولكن شخصية شارلمان المهيمنة وساعده القوى ابقى هذه الطبقة في مواقعها من دون السماح لها في تجاوز تلك المواقع . بل ان شارلمان حاول عن طريق المبعوثين الملكيين الحد من نفوذ الارستقراطيين من كونتات واساقفة ، ولكن اولئك المبعوثين جاءوا من الارستقراطية نفسها ، وبدلا من ان يعمل النظام على الحد من نفوذ الطبقة الارستقراطية فانه زاد من نفوذها ، فقد كانت مصالح المبعوثين الملكيين متفقة مع مصالح الكونتات والاساقفة . على اية حال ، ان ازدياد نفوذ الطبقة الارستقراطية كان على حساب السلطة الملكية ، وكان هذا عاملا مهما في اضعاف الملكية الكارولنجية وفي تفككها في نهاية الأمر.

والكارولنجيون جرمان ، وبقيت مثلهم ومفاهيمهم جرمانية في اساسها ، فشارلمان نفسه ، على سبيل المثال ، كان يرتدي الملابس الجرمانية ، ويحارب ويعمل كزعيم جرماني. فعلى هذا الاساس بقي المفهوم الروماني للوحدة والدولة والامبراطورية غريبا وغير متبلور بالنسبة لهم.

والواقع ان مفهوم الوحدة والامبراطورية لم يكن غير مستوعب من قبل الشعوب الجرمانية والنبلاء الجرمان فحسب، بل كان غير مستوعب ايضا من قبل العائلة المالكة الكارولنجية نفسها. وليس أدل على ذلك من استمرار الكار ولنجيين حتى نهاية عهدهم في اعتبار المملكة ملكا شخصيا للعاهل تقتسم بالتساوي بين ابنائه عند وفاته كأية

تركة اخرى. وكان للتقسيم المتتالي لمملكة الفرنجة منذ عهد كلوفس وحتى نهاية القرن التاسع عاملا مهما في تأجج الحروب الاهلية وتهديد وحدتها للخطر وفي استنزاف مواردها. لقد اعقب كل تقسيم حربا اهلية مدمرة ولعل حروب لويس التقي واولاده مثل لذلك.

هذه العوامل الرئيسة التي عملت على تفكيك الامبراطورية الكاروالنجية وهي عوامل داخلية كما يتضح لنا ، والى جانبها جاءت الهجمات الخارجية المتمثلة في غزوات الشماليين والسلاف والمجريين والبلغار والمسلمين لتعجل عملية الانحلال والتفكك .

العوامل الخارجية :

كان القرنان اللذان اعقبا وفاة شارلمان احلك فترات التاريخ الأوربي ، حتى انها سميت بالعصور المظلمة فقد سادت فيها الفوضى السياسية والتفكك الاجتماعي والانحطاط الثقافي. وتعرضت اوربا خلالها لغزوات فاقت في ضراوتها الغزوات قامت بها القبائل الجرمانية والهون في القرنين الرابع والخامس. فقد هاجم السلاف والهنغاريون والبلغار اوربا من الشرق، وهاجمها العرب من الجنوب ، وهاجمها الشماليون الفايكنك (Vikings) من الشمال والغرب ، ولم يكن اي من هؤلاء المهاجمين يكن في نفسه شيئا من الاحترام والود للمؤسسات القائمة. والمسيحية كما كان الأمر بالنسبة الى القبائل الجرمانية عندما اكتسحت جحافلها الامبراطورية الرومانية.